عنوان المداخلة: إشكاليات التأويل وعملية الفهم في التداوليات المعرفية

رواية " إرهابيس – أرض الإثم والغفران" لـ عز الدين ميهوبي

الملخص:

إن تأويل الأقوال هو عملية مرتبطة بواقع وحقيقة الأقوال، ذلك أن التأويل يفترض إجراءات تحليلية وصفية لعمليات كلامية موجودة فعلا، أي متحققة بفضل اللغة التي هي نظام مزدوج: نظام من العلامات والرموز اللسانية، ونظام معرفي سيكولوجي، وبناء على هذا الازدواج تطرح إمكانيتان إجرائيتان لمفهوم التأويل[1]:

- الإمكانية الأولى: يكون للتأويل فيها موضوع واحد هو وصف عملية الفهم التي تتحقق عن طريق اللغة وحدها، وهذا الوصف ليس له أية علاقة بالحقول المعرفية الأخرى (نفسية، سياقية،...).
- الإمكانية الثانية: يكون التأويل فيها مندمجا داخل منظومة عامة للعمليات المعرفية التي تحقق الفهم، وهي منظومة تسمح بالإحاطة بكل الحقول المعرفية التي تدور في فلك الفهم الشامل للقول.

وانطلاقا من هاتين الإمكانيتين ظهرت النظرية التداولية المعرفية التي أرسى قواعدها كل من "سبيربر" و"ويلسون" في كتابهما (الإصابية ***Pertinence***)، حيث ينطلقان في تحليلهما لعملية الفهم من مجموعة من المبادئ والمفاهيم أبرزها مبدأ "الملاءمة"[2].

مبدأ الملاءمة (الإصابية):

وهو مفهوم ذو خصوصية سيكولوجية، يعمل على اختيار ما يأخذ باهتمام المتخاطبين وما يثير فيهم من أقوال وحجج، إذ كل الكائنات البشرية تمتلك حدس الإصابية؛ وذلك أنها تستطيع التمييز بين المعلومات الملائمة، على الأقل بالنسبة لسياق معين، ومن هنا فإن الفهم يمثل درجة الملاءمة لا وجودها أو غيابها فقط؛ ما دامت المعلومات متعلقة بنظام من المعتقدات ومندمجة ضمن هذا النظام، وبالتالي فهي لا تتركه عاريا وإنما تعمل على تعديلات معينة هي من مستويات مختلفة[3].

يستنتج من هذا أن دور المعلومات الجديدة من شأنه الرفع أو التقليل من درجة معتقدات النظام، أو التأكيد أو النفي، مما يكشف عن بعض التضمينات السياقية التي بإمكانها أن تجر إلى معتقدات أخرى؛ تؤدي في النهاية إلى تفاعل المعلومة الجيدة بالمعلومة القديمة.

وعلى حد تعبير "بيريلمان" فإن مبدأ الإصابية ليس قاعدة، ولكنه يشتغل كمحرك لعمليات التأويل على مستوى النظام المركزي للفكر[4]، وبذلك فهو يختلف عن المبدأ الكرايسي والمبادئ التي تفرعت عنه، باعتبار هذه المبادئ معايير وقواعد يجب على المخاطبين معرفتها بهدف تحقيق التواصل الفعال، وإن كان

---

(1)- Dictionnaire Encyclopédique des sciences du langage, ed. Seuil, paris, 1972, P:133.

(2) – عبد الرحمن عشير، إشكالات التواصل والحجاج رسالة دكتوراه، جامعة فاس، المغرب، 2000، ص22.

(3) - Dictionnaire critique de la communication, P:894.

(4) - Théorie de l'argumentation, P:25.

بالإمكان خرق هذه المبادئ، في حين أن الإصابية لا تتطلب من المتخاطبين معرفة مسبقة، وبالتالي لا يمكن خرقها؛ لأنها موجودة مسبقا عند كل الكائنات البشرية[1].

وهكذا، فإن الإصابية تعد مبدأ يكون أصلا في كل تواصل، وهذا المبدأ مؤسس على التصور الاستدلالي والمعرفي، ومدعم في الآن ذاته بأسباب سيكولوجية ومنطقية يصعب خرقها؛ ومن أجل ذلك تعتبر الإصابية قاعدة للفعل التواصلي بامتياز[2].

إشكالات التأويل:

تمتح النظرية التداولية المعرفية من نظريتين مختلفتين: نظرية الفضاءات الذهنية لفوكوني، والنظرية القابلية لفودور، وتشتغل هذه النظرية حول الإشكالات التي أشارتها النظريتان، وتوظف كل ذلك في مجال التواصل الإنساني، بما يعنيه من العمليات التي تساهم في تحقيق التلاؤم والتفاهم بين الناس والشروط العامة (القبلية والبعدية) التي تتحكم في هاته العمليات[3].

وتشتغل النظرية التداولية المعرفية على مستويين:

1. المستوى الذهني: أي كل ما يتعلق بالمعلومات: الاستقبال والربط وغيرها، وكل ما هو مرتبط بالأنظمة القالبية غير المتخصصة أي الفهم الحرفي.
2. المستوى المعرفي: أي كل ما يتعلق بالعمليات الداخلية (الذاكرة والمراكز الخلفية) والخارجية (السياقات والمقامات والظروف العامة للقول) وكل ما هو مرتبط بالأنظمة المركزية غير المتخصصة أي التأويل.

تحليل القول في المستوى الذهني:

يعالج القول في المستوى الذهني بداية عن طريق النواقل العصبية، حيث تعطيه شكلا يجعله قابلا للدخول في العملية العصبية، وبعد ذلك يعالج عن طريق القالب اللساني المتخصص الذي يوافق تقليديا الميادين التي تغطيها الفونولوجيا والتركيب والدلالة، والتي تقدم الشكل المنطقي للقول (متوالية مبنية من المفاهيم)، وهذا الأخير يصلح بعد ذلك للدخول في العملية التداولية المعرفية لتأويل القول[5].

التأويل والنظرية الإصابية:

نظرية الإصابية هي نظرية التأويل، هدفها الرئيس هو وصف كيف؟ ولماذا يؤول قول بطريقة اختيارية معينة (أي تلائم هذا الشكل أو لا تلائم الآخر)؟، وتعد نظرية الإصابية تطويرا للنظرية التداولية، حيث تندرج في إطار علم النفس المعرفي[*].

---

(1) - عبد الرحمن عشير، إشكالات التواصل والحجاج، المرجع السابق، ص:34-35..

(2) – المرجع نفسه، ص35.

(3) – نفسه، ص32.

(5) - عبد الرحمن عشير، إشكالات التواصل والحجاج، المرجع السابق، ص33.

(*) – علم النفس المعرفي فرع من فروع علم النفس عرف تطروا ملحوظا لا يهتم مباشرة بدراسة الشعور ولا التجريد الذهني، بل يهتم بالاشتغال الثقافي للذهن البشري، وبمعنى آخر فالآليات والعمليات الذهنية المعرفية هي التي بواسطتها نكتسب أو ننير معتقداتنا حول العالم.

إن التحليل التداولي للأقوال حسب النظرية الإصابية يأتي في آخر المراحل التي تشكل عملية تأويل القول، فبعد ترجمة القول عن طريق النواقل انطلاقا من التحليل اللساني الذي يقدمه النظام المداري اللساني يقوم النظام المركزي غير المتخصص بإتمام وإنهاء عملية التأويل، وذلك بتقديم التأويل اللساني الكامل للقول[1].

ومن دراسة النظام المداري اللساني انطلق مؤلفا كتاب (الإصابية) "سبيربر وولسون"، واعتبرا أنه يقدم تحليلا لسانيا أوليا للقول (وهذا التحليل يوافق الشكل المنطقي) بعده متوالية مبنية من المفاهيم، وكل مفهوم هو عنوان ذاكرة النظام المركزي.

وتحت هذا العنوان تتراكم مختلف المعلومات[2].

أ. **منطقية**: أي المعلومات التي توافق مختلف العلاقات المنطقية (تضمين، تعارض،...).

ب. **موسوعية**: أي كل المعلومات التي ليست منطقية ولا معجمية تسمح بتوسيع المفهوم (عرف، تقاليد، معتقدات).

ج. **معجمية**: أي كل المعلومات التي توافق مقابلات المفهوم داخل اللغات الطبيعية.

التأويل والسياق:

إن الخطاب قول ليس في التحليل التداولي جملا معزولة، يتم تأويله في استقلال عن السياق، بل يظهر داخله على شكل قضوي، وتتفاعل بعض المعلومات التي توجد في كنف عناوين بالمفاهيم، وهذا ما يجعل السياق في هذه النظرية معطى غير ثابت، إنه يبني قولا بعد قول، إذ " ليست المعلومات المفهومية هي المعلومات الوحيدة التي تدخل في تشكيل السياق، بل تتدخل أيضا إلى جانب تأويل الأقوال المباشرة، المعلومات المرتبطة بالمحيط الفيزيقي الذي يأخذ فيها التواصل مكانه".

وهي معلومات متراكمة في النظام المركزي الذي يضم الذاكرة بأنواعها الثلاث[3]:

1. **ذاكرة العمل**: وهي ذاكرة قصيرة المدى وتوافق السياق الآني.
2. **ذاكرة متوسطة المدى**: حيث تتراكم فيها تأويلات الأقوال المباشرة.
3. **ذاكرة بعيدة المدى**: حيث توجد المعلومات المفهومية.

التأويل والمحيط المعرفي:

إن السياق الذي تحلل فيه الأقوال مبدئيا هو ما تضمه ذاكرة العمل (القصيرة) أثناء التأويل، لكن السياق عامة يتكون من ثلاثة أنواع من القضايا أو المعلومات المستخرجة من الذاكرة، توافق ثلاثة مراحل زمنية:

1. المعلومات المستخرجة من الذاكرة البعيدة المدى.
2. المعلومات المستخرجة من الذاكرة المتوسطة المدى.

---

(1) - عبد الرحمن عشير، إشكالات التواصل والحجاج، المرجع السابق، ص36.

(2) - المرجع نفسه، ص36.

(3) – نفسه، ص37.

3. وأخيرا المعلومات المستمدة من المحيط الفيزيقي أي المعلومات التصورية المستمدة من الوضع التواصلي.

وهذه المعلومات بأنواعها الثلاثة، تشكل المحيط المعرفي.

إن معلومات المحيط المعرفي هي كثيرة جدا، بحيث لا يستطيع الفرد استغلالها جميعا (وهو أمر مستحيل التحقق) لذلك تطرح مسألة اختيار ما يلائم السياق من هذه المعلومات، فعلى أي أساس اختيار ما يناسب السياق من معلومات؟ مع العلم أن القول والسياق يشكلان معا المقدمات الأساسية لتداولية التأويل.

إن المبدأ الذي يسمح بالاختيار هو مبدأ الإصابية، وهو مبدأ يجعل المتكلم يختار بين المعلومات المتعددة مجموعة من الفرضيات التي تقتضي أن يكون فعله التواصلي مصحوبا بضمانة الإصابية (أو الملاءمة).

التأويل والآثار السياقية:

إن الآثار السياقية في النظرية التداولية المعرفية هي التي تنتج عملية التأويل انطلاقا من المقدمات (التي هي الأشكال المنطقية للأقوال) والقضايا التي يتكون منها السياق، والتي يمكن إجمالها في ثلاثة أنواع:

أ. التضمينات السياقية، وهي النتائج الجديدة التي نحصل عليها انطلاقا من الأقوال والسياق مجتمعين.

ب. إعادة تقييم المعلومات التي يتوفر عليها الإنسان من قبل، إذ يمكن تغييرها بتعديل أو تأكيد ما كان يعتقده الإنسان.

ج. إلغاء القضايا الضعيفة في الحالات التي تتناقض فيها القضايا الموجودة في الذاكرة انطلاقا من التضمين السياقي.

ومن هنا تكون فائدة النظام المركزي (في عملية الاختيار والتأويل) ناجعة، حيث يسمح باختزال "كلفة معالجة" الأقوال بفعل تقليصه لجزء من عملية التأويل اللساني، بحيث لا يؤول النظام المركزي كل كلمة على حدة ولا يجمع تأويلاتها ويركبها... بل يقدم تأويلا شاملا يكون فيه مبدأ الإصابية حاضرا بقوة، لاختيار ما يلائم السياق والقول مجتمعين سواء كان هذا السياق مصغرا متعلقا بظرفية لحظية أو سياقا مكبرا سيتخذ بسياقات أخرى ماضية، كونية، افتراضية،...الخ.

وعلى الجملة، فإن النظريات التداولية التي ارتبطت بدراسات كل من "أوستين وسورل" و"كرايس وديكرو" كان من نتائجها أنها قلصت من دور التحليل المنطقي اللساني، واتسع مجالها إلى التحليل الخارجي للأقوال، على اعتبار أن هذه الأقوال مرتبطة بالوقائع الخارجية القابلة للتحقق، وأن الكلام مرتبط بالاستعمال العادي أي اللغة اليومية[1].

عملية الفهم ضمن إطار الوظائف الاتصالية للخطاب النصي:

إن عملية الفهم تشكل دائرة مغلقة تحكمها قوانين محددة خاصة بها، بينما تتسع عملية التفسير لقضايا أخرى تتحكم بها عوامل متباينة وفي حين لا يتطلب فهم الوحدة اللغوية مهارات خاصة، فإن عملية التفسير

[1] - عبد الرحمن عشير، إشكالات التواصل والحجاج، المرجع السابق، ص22.

تحتاج إلى مهارة إضافية، وعلى الرغم من اقتناع علماء النفس بأن الاتصال التفاعلي لا يقتصر على الفهم فقط، بل يتعداه إلى مرحلة التفسير فإنهما قد أدمجا في بوتقة واحدة، يشار إلى تحقيقهما بنجاح عملية الاتصال التفاعلي[1]. ونظرا لأهمية عملية الفهم، فقد بدأ التحول في مجال علم النفس المعرفي خلال الفترة الأخيرة من تحليل فهم الجملة إلى فهم النص/الخطاب. ويلتقي علم اللغة بعلم النفس المعرفي في الجانب الذرعي (المقصدي)، لكون التحليل اللغوي بحاجة إلى نواح غير ظاهرة في الخطاب، ومجال وجودها هو التحليل النفسي لذلك بذلت – كما يقول محمد مفتاح- محاولات للخروج بها من ميدان علم النفس إلى مجال اللسانيات[2].

تحليل عمليات التلقي وتأثيرها:

يتعين على الدارس البلاغي للخطاب أن يتبنى منهج اللسانيات الوصفية، ببعده الديناميكي المفتوح، محاولا تحديد الأشكال اللغوية المناسبة في النص دون إغفال للمحيط الذي وردت فيه، وذلك للكشف عن الاطرادات الظاهرة ووصف حركتها.

فمحل الخطاب يعتبر الكلمات والعبارات والجمل التي تظهر في المدونة النصية لخطاب ما، دليلا على محاولة المنتج، توصيل رسالة إلى متلق، مما يجعله يعنى على الخصوص ببحث كيفية وصول متلق ما إلى فهم الرسالة المقصودة من قبل المنتج في مناسبة معينة. وكيف أن متطلبات المتلقي المفترض تؤثر في تنظيم خطاب المنتج، وتتخذ هذه المقاربة الوظيفة التواصلية مجالا أوليا للبحث، وبالتالي تسعى إلى وصف الشكل اللغوي ليس كموضوع ساكن، وإنما كوسيلة منظمة دينامية للتعبير عن الدلالة المقصودة[3].

وتساوقا مع هذا، يتمثل حكم القيمة في التعبير بشكل ظاهر أو ضمني عن مدى الرضى والارتياح الجمالي للوظيفة التي يقوم بها النص، أو الضيق بها والتبرم منها. فهو يفترض سلما من القيم يصعب قياسه علميا حتى الآن؛ لأنه يرتبط بمتغيرات كثيرة ذات طابع نفسي واجتماعي وثقافي، يمكن أن يكون خاضعا لتأثير أنظمة قيمية أخرى أخلاقية ودينية وسياسية ماثلة لدى المفرد المتلقي شعوريا أو لا شعوريا والدراسة المتعمقة للاستجابة الماثلة في حكم القيمة تنتمي إلى مستوى آخر من البحث الذي يتطلب منهجية وتصورات مختلفة عن تلك التي تقوم بتنميتها البلاغة والأسلوبية[4].

ومن هذا الجانب يرى "بيريلمان" أن التمييز بين أحكام الواقع وأحكام القيمة لا يمكن أن يكون مطلقا؛ لأنه يعتمد على درجات مختلفة من الكثافة والتداخل في كثير من الأحيان اعتمادا على المفهوم الجديد للتأويل الذي يرى "هانز جورج غادامير" أنه " يتمثل في التركيز على الوحدة الوثيقة بين اللغة والفكر باعتبار هذه

---

(1) – د/فالح شبيب العجمي، مقال العلاقة بين القارئ وفهم كتاب النص، عالم الفكر، المجلس الوطني الثقافي والفنون والآداب، دولة الكويت، المجلد 28، العدد 01، سوليو/سبتمبر، 1999، ص:346-347.

(2) – محمد فتاح، دينامية النص (تنظير وإنجاز)، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، المغرب، ط/2، 1990، ص38.

(3) – د/صلاح الدين فضل، بلاغة الخطاب وعلم النفس، عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية شهرية، مصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 164، 1992، ص127.

(4) - G. Yule Brown, Discourse Analisis, Cambridge, 1983, P:245.
نقلا عن: د/صلاح الدين فضل، بلاغة الخطاب وعلم النفس، ص128.

الوحدة هي الفرض الذي تنطلق منه الألسنية وتصبح بفعله علما،... فعن تحليل الظاهرة التأويلية؛ نجد أنفسنا في مواجهة الوظيفة الكلية للفعل اللغوي، وفي انكشافها تمتلك الظاهرة التأويلية مدلولا كليا"[1].

ولعل العمل الجبار الذي قام به "كرايس" في تقعيد التخاطب، كان له الدور الأساس في تحديد المبادئ الرئيسة في عمليات المحادثة، وأشكال التواصل بين المتخاطبين؛ هذه المبادئ التي ساهمت في إبراز القيمة التداولية للكلام، وأعطت مفهوما جديدا للمعنى الضمني، والمعنى المعجمي، ولمعنى التأويل والفهم، وعالجت إشكالات المقامات والسياقات التي كانت تقف في وجه التحليل المنطقي التقليدي، معالجة أخذت بتوظيف نتائج العلوم المعرفية[2].

فالمعول عليه في العلوم المعرفية؛ هو أنها تمثل تآلفا لمجموعة من العلوم المستقلة؛ بعضها وصفي تجريبي (علم النفس المعرفي، اللسلنيات، والأنطروبولوجيا المعرفية) وبعضها نظري تطبيقي (الذكاء الاصطناعي) هذه العلوم التي تلتقي في استهدافها للعمليات الآلية التي يشتغل بها الذهن البشري؛ من تفسير، وتجميع، وإنتاج للمعارف وتأويلها.

أنواع الفهم:

يوجد نوعان من الفهم؛ فهم إيجابي، يفترض كمّا كبيرا من الذكاء، ويعد مهمة غابة في التعقيد وهو ما يسمى "البصيرة" (***Insight***)، وينشأ هذا الفهم عندما يصبح هذا الفهم مشكلة[3]. أما النوع الثاني فهو الفهم السلبي؛ وهو ما يحققه أغلب الناس بسهولة فطرية، ممن ليس لديهم فهم إيجابي، أو ليس لديهم منه إلا القليل، فهذا الفهم شكل من "المعرفة الضمنية" أو "القدرة المعرفية" السلوكية، وهي إمكان الكفاءة لفعل الكلام، وهي باختصار "عادة" (***Habit***)، ومعلوم أن كل ما يمارسه الإنسان بقوة العادة يعمله بشكل طبيعي؛ أي دون فكر، فالعادة – إذن- توجد مقابل التفكير الواعي، ومن اجل ذلك يختلف "الحدس العام" (***Commonsense***)، من زمن لآخر، ومن مكان إلى غيره، فهو ليس "طبيعيا" بل "ثقافي" لأن العادة ثقافة ونوع من الطبيعة الثانية، لذا يعطي الحدث العام قالبا تكوينيا جاهز الصنع، الشيء الذي يمكن بواسطته تفسير الوقائع والأحداث اليومية[4].

ولكن هل الفهم مطلقا؟

قبل التطرق إلى الإجابة عن هذا السؤال هناك إشكالية المعرفة، وهو سؤال مركزي في العلم المعرفي طرحه بشكل دقيق العالم اللساني النحوي "نوامشومسكي" سنة 1975 الذي يقول:" كيف يحدث أن الكائنات البشرية بارتباطها المحدود والشخصي بالعالم تكون رغم ذلك قادرة على معرفة ما تعرفه"[5].

---

(1) – هانز جورج غادامير، فن الخطابة وتأويل النص ونقد الأيديولوجيا، تر: نخلة فريفر، مجلة العرب والفكر العالمي، بيروت، 1988، ص34.

(2) – المرجع نفسه، ص23.

(3) – د/فالج شبيب العجمي، مقال العلاقة بين القارئ وفهم كتاب النص، المرجع السابق، ص3

(4) - G.B. Madison, Understanding a phenomenological, pragmatic, analysis in philosophy, N° 19, Connecticut, green wood press, 1982, P:155-158.

نقلا: عن د/فالج شبيب العجمي، مقال العلاقة بين القارئ وفهم كتاب النص، المرجع السابق، ص357.

(5)– Dictionnaire critique de la communication, P:874.

فالإنسان يملك معرفة ما، عن حقائق موجودة فعلا، وعن بعد (***Distance***) سواء كانت طبيعية أو اجتماعية أو رياضية أو لسانية، ويدخل مباشرة معها في تفاعل معظم الحواس، ثم بواسطة الحدس، وأخيرا عن طريق التفكير المعقلن، يستحضر تلك الحقائق الموجودة ليوظفها متى دعت الضرورة إلى ذلك[1].

ولكن المعرفة التي يمتلكها الإنسان وينشدها لا تتأتى هكذا، وإنما عن طريق البنيات الإدراكية وعمليات الإدراك، هذه البنيات التي تطرح إشكالات حول طبيعة النظام الذي يشتغل به الذهن البشري، وكيف يستقبل ويرسل، وكيف يستنتج، فالذهن البشري نظام كلي يشتغل وفق آليات فيزيائية من أجل نمذجة البنيات والعمليات الإدراكية، وتشغيل البرنامج المعرفي وبالتالي تحقيق المعارف[2].

وفي الحقيقة، فإن الفهم يتجه ضرورة إلى سوء فهم نفسه، لأن أولى مراحل التحرر لدى المرء من أوهام الفهم أن يعي ذلك، فهو لكي يحصل على بعض الفهم، يجب عليه أولا أن يراعي أن كل المعرفة اعتقاد فحسب، وأنه لا يوجد فهم يكون حقا مطلقا، ويكون معرفة للحقيقة، وذلك أن الاعتقاد لا يمكنه أن يسائل نفسه، ولكننا نستطيع أن نحرر أنفسنا من الغوغائية[*] متى كان اتجاهنا المتأصل لأخذ الأشياء عن معتقداتنا عن الحقيقة نفسها[2].

عوامل تكوين فهم الخطاب والنص المكتوب:

1. **التوقعات**: السائد أن المتلقي يبدأ الفهم بعد تلقيه للرسالة موضوع الخطاب، ويستغرق ذلك إجراءات متتالية توصله في النهاية إلى الفهم الكلي للخطاب؛ ولأن السامع يتلقى الرسالة دون إرادة منه، فإن توقعاته لمضامين الخطاب تكون أقل درجة من توقعات متلقي النصوص المكتوبة، وذلك أن القارئ لا يتعامل مع النص بشكل محايد وبريء، ولا يذهب إلى عالم النص وهو صفحة بيضاء، بل تكون لديه معلومات مختزنة في ذاكرته، تسمح له بالتعميم اعتمادا على مبدأ النظير، كما أن النص بخصائصه الظاهرة هو الذي يتيح للمتلقي القيام بمعمليات المقايسة والتصنيف والتماس الخصائص النوعية[3].

ويقدم كل من "ريزبك" (Riesbeck) و"شانك" (Schank) في دراستهما التحليل التصوري ما يدعم مبدأ الدور المهم الذي تسهم به التوقعات في فهم القارئ، حيث ينسبان جزءا كبيرا من الفهم إلى توقعات تصورية وليست معجمية، ويجزمان بأن تصنيف المفردات يتم على أسس من التوقعات في ذهن المتلقي أثناء تعامله مع النص اللغوي الذي يكون بحاجة إلى نقله إلى تصورات بغرض تحليله وفهمه وتفسيره[4].

وتنشأ توقعات المتلقي كذلك من مدى معرفته بشخص المرسل وخلفيته، وكذا من الإمكانات الذهنية والتصورية التي يمكن أن تظهر في أقواله، كما أن للمسافة الزمانية والمكانية والاجتماعية دورها في طبع توقعات المتلقي إلى جانب بعض العوامل النصية والسياقية، مثل معرفته لموضوع أو سياق الخطاب، أو

---

(1) - عبد الرحمن عشير، إشكالات التواصل والحجاج، المرجع السابق، ص24.

(2) - Dictionnaire critique de la communication, P:873-876.

(*) – الغوغائية: تكون باعتبار المرء اعتقاده قاطعا وغير قابل للنقد.

(2) - د/فالح شبيب العجمي، مقال العلاقة بين القارئ وفهم كتاب النص، المرجع السابق، ص358.

(3) - محمد فتاح، دينامية النص (تنظير وإنجاز)، المرجع السابق، ص42.

(4) - د/فالح شبيب العجمي، مقال العلاقة بين القارئ وفهم كتاب النص، المرجع السابق، ص260.

سياق أحداثه أو الوضع الجسمي للأطراف المشاركة من حيث هيئة الجسم وطبيعة الحركة، وتقاسيم الوجه مما يجعل التوقعات أكثر دقة وتحديدا[1].

2. **الأحكام المسبقة**: وللأحكام المسبقة أيضا دورها في بناء توقعات المتلقي، حيث تجعله مستعدا لتقبل التوقع على أنه حكم فعلي " فقد ننظر على التحيز العنصري مثلا، على أنه مظهر لنمط محدد من التفكير، بشان أفراد نصادفهم لعهد قريب، فنمنحهم صفات وأفعالا مخصوصة على أساس نسق ذهني مسبق، رسمناه لأفراد من جنس معين... فبدلا من اعتبارها قيودا حتمية تحدد كيفية فهمنا للنص، يمكن اعتبار الأنساق الذهنية بمثابة الخلفية المعرفية المنظمة التي تقودنا إلى أن نتوقع أو نتنبأ بمظاهر معينة في تأويلنا لما جاء في الرواية"[2].
3. **الصفات الشخصية للمتلقي**: ليست المعرفة أو التوقعات فقط هي التي تلعب دورا مهما في الفهم والتمثيل الإدراكي، بل أيضا الصفات الشخصية للمتلقي، تلك الصفات التي تترسخ من خلال التجارب الحياتية والخبرات الذهنية التي يبنيها المتلقي في الوعي أو اللاوعي، والتي على ضوئها تكون محصلة الفهم الأولية مناسبة لما اختاره من قبل أو غير مناسبة، إذ تقوم عمليات فهمه على ربط كل حدث أو حالة بالتجارب السابقة المشابهة، ويتم ذلك من خلال أقيسة ذاتية الصنع يخزن فيها ما لا يتلاءم معها بوصفه نمطا جديدا[3].

واعتمادا على الصفات الشخصية للمتلقي، يجب أن يفرق بين الفهم الشخصي للنص والفهم الشخصي للموقف الذي يتحدث عنه النص، ففي الحالة الأولى يكون موضوع الاعتقاد أو الرأي أو الصفة الوظيفية المباشرة للسياق التواصلي الحالي، وهو بذلك يتضمن تقويما للنص أو بعض صفاته، أو تقويما للمتكلم، أما في الحالة الثانية فتشكل الآراء أو الاعتقادات أو الصفات بمراعاة ما تعود إليه من مرجعية موضوعية أو شمولية في النص مثل: الحدث السياسي أو الحالة الاجتماعية أو المشاركين في مثل تلك الأحداث والمواقف[4].

وعلى أساس هذه العوامل التي تساهم بشكل فعال في الفهم، يوجد لدى "روبرماثيير" (Roepert Matthier) استعارة يشبه فيها تلقي الرسالة اللغوية بعمل محقق الجريمة الذي يتحرى الجزئيات، ويحاول أن يطابق بين ما يوجد في مشهد الجريمة، وما لديه من ملفات المتهمين في تطابق البصمات أو اتفاق يدعو إلى تأكيد التهمة، فرجل التحري يضيف من عنده معلومات إلى الوقائع الفيزيائية بالاعتماد على تجربته الذاتية، وفي إدراك الكلام يعيد بإيجابية بناء القطع الصوتية، التي يفترض أن تكون قيلت من قبل المتكلم، ويأخذ

---

(1) – ج.ب.براون، ج.بول، تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي الزليطي، منير النريكي، مطبوعات جامعة الملك سعود، 1997، ص48.

(2) – المرجع نفسه، ص296.

(3) – نفسه، ص296.

(4)-T.A.van Dijk, opinions and attitudes in discourse comprehension, language and comprehension, ed J.F, NY, W Kintch, amstrerdam, North Holland publishing company, 1982, P:37.

نقلا عن: د/فالح شبيب العجمي، مقال العلاقة بين القارئ وفهم كتاب النص، المرجع السابق، ص364.

المفاتيح المعطاة في النص المكتوب الذي يقرأه. واعتمادا على معرفته بطريقة عمل لغته وأيضا على السياق الذي يكتب عنه المبدع[1].

وتلقي الرسالة يقوم على ما نسمع أو ما نرى، لكن ماذا نسمع؟ وماذا نرى؟

حتى وقت قريب كان ينظر بين علماء اللغة والنفس، أن المتلقي أشبه ما يكون بالطابع على الآلة الكاتبة " فهو يتلقى الرموز المكتوبة التي تتألف منها فيتعرف عليها الواحدة تلو الأخرى محاولا وضع الألفاظ والمعاني لكل كلمة"[2].

ولا أحد ينكر أن كل إنسان سوي مزود في ذهنه بمعرفته لأنظمة لغته؛ من نظام صوتي، ونظام نحوي، ونظام للمعاني؛ ولذا فهو يتوقع أن يسمع أو يقرأ كلاما يتماشى وهذه الأنظمة جميعا، ولكن من الضروري أن يسمع أو يقرأ كل ما يتوقع تلقيه، ومن أجل ذلك فهو يفتش دائما عن إشارات تشير إلى الإطار العام للنص الذي بين يديه، وبالتالي فإنه يتوقع ما هو آت من الكلام.

وهكذا فإن معرفتنا بقواعد لغتنا تجعلنا نتوقع ما هو آت من الكلام بناء على معرفتنا أيضا بمعاني المفردات، ولقد دلت الأبحاث التي اتبعت هذا المنهج في الدراسة، وخاصة تلك التي قام بها "توم بيفر" (T.G.Bever) في جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة الأمريكية، أن المتلقي يتلقى ما يتوقع أن يتلقاه، ويساعده على هذا التوقع معرفته بأصوات لغته ومعرفته بقواعد لغته، ومعرفته كذلك بمعاني مفردات لغته، وكذلك معرفته بالعالم بوجه عام وبحضارة أمته بوجه خاص[3].

ومن أجل ذلك يضيف السامع أو القارئ - كما سبق الذكر- معلومات من مخزونه الذهني يكمل بها ما يفوته أو ما لم يفهمه، ومعنى ذلك أن ما ينتج عند وضع قطع الجمل في سياق منطوق أو مكتوب ليس هو الجملة التي تنقل أفكارا محددة، وإنما مشروع جملة، ومجموع هذه المشاريع أو ناتجها يشكل مشروع نص وليس نصا، وذلك كله بعد استقرار الأفكار لدى المتواصل معه[4].

وبعد هذا العرض البسيط لعوامل تكوين الفهم، نخلص على أنه إذا كان تكوين النص، يعتمد على المتلقي الذي يوجه الفعل الكلامي، ويعتمد عليه نجاح الحدث الاتصالي، لا على المنتج، فإن المعاني الأقرب إلى ذهن المتلقي هي التي تكون مفضلة لديه، والشيء نفسه يتحقق عندما يكون للعبارة أو النص أكثر من دلالة، فإنه يختار أكثرها سهولة أو بداهة.

---

(1) - E. Matthier and T. Roeper, undestanding and producing speech, Great Britain fontana paperbacks, 1983, P:70.

نقلا عن: د/فالج شبيب العجمي، مقال العلاقة بين القارئ وفهم كتاب النص، المرجع السابق، ص:364-365.

(2) – نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1987، ص200.

(3) - T.G Bever, the cognitive basis for linguistic structure in "hayes", cognition and the development of language, NY, Willey, 1970, P:184.

نقلا عن: د/فالج شبيب العجمي، مقال العلاقة بين القارئ وفهم كتاب النص، المرجع السابق، ص203.

(4) - د/فالج شبيب العجمي، مقال العلاقة بين القارئ وفهم كتاب النص، المرجع السابق، ص365.

وعلى هذا الاعتبار؛ ركز "عز الدين ميهوبي" اهتمامه في روايته على المتعة والمعرفة، إذ يقول:" للعمل الإبداعي عنصران: المتعة والمعرفة، فالمتعة حتى يواصل المتلقي رحلته القرائية، والمعرفة لأنه لابد للمتلقي من أن يخرج بعد قراءته للرواية أو النص الإبداعي بكم من الأسئلة والمعلومات"، مضيفا قوله:" فالكاتب يجب أن ينطلق في كتاباته من زاوية المستهلك، كما يجب أن يكون صادقا مع ما ينتج، وأن يكون قارئا جيدا لكل المعارف".

ولكن ما الفرق بين معنى النص وبين مفهومه؟

في كثير من التصورات الذرعية يفرق بين معنى النص ومفهومه وذلك أن أغلب عناصر النص لها دلالات ذرعية في طرح الحجج مثلا، أو صيغ الخطاب أو طرق الكلام، وحتى في الكلمات المفردة أو الجمل الكاملة التي يكون مضمونها قابلا للدراسة، ومع ذلك لا يمكن فهمها بشكل صحيح إذا لم يرجع إلى المواقف التي قيلت فيها أو إلى الخلفية المعرفية المرتبطة بها، ومعلوم أن كل عنصر له من ناحية المبدأ إمكان ذرعي، والواقع أننا نتكلم من أجل أن نبلغ هدفا[1]. وما يريد "عز الدين" تبليغه للمتلقي هو أن التعبير بالدم لا يجلب إلا الدم وهي دعوة منه مبينة لتفادي هذه الفتن التي تأتي على الأخضر واليابس والتي تهدم بدلا من أن تبني، تدمر عوض أن تغير.

ومن خلال خلفية المواقف المختلفة، يمكن أن يفرق هنا بين معنى النص بوصفه ذلك المضمون الذي يحتويه النص تركيبا ودلالة (أي ما يوجد في النص فعلا) وبين مفهوم النص بوصفه الشيء الذي ينقله النص في موقف معين وبدلا من مفهوم النص يمكن أيضا أن تسمى "الوظيفة الاتصالية".

يستنتج مما سبق أن النص يدخل في سياق حدث ينتج في إطاره تبعا للهدف المقصود، ويفهم في إطاره أيضا، أما ما يؤخذ من مفهوم النص أو الوظيفة الاتصالية، فإنه لا يعتمد على النص فقط، بل يجب على المتلقي أن يتلقاه من تراكم معقد من معنى النص وعوامل إنتاج الموقف وفهمه (يتبع إلى ذلك شركاء الاتصال والغرض من الكلام وكذا حدود العلاقات بين هؤلاء الأطراف)[2].

وبعد هذا، يبدو التباين بين معنى النص ومفهومه في النصوص المنطوقة أكثر جلاء، الأمر الذي يوضح إعطاء وزن أكبر في حالات الحوار للعوامل غير اللغوية في تحديد المفهوم، خصوصا نبرة الصوت، وتعابير الوجه، والحركات الجسمية المصاحبة أكثر من حالات النصوص الأحادية (الكاتب والنص).

غير أن المبدع البارع هو الذي يستطيع أن يجعل المتلقي يتفاعل ويتواصل مع نصه، وذلك بتوفير كل ما يمكنه أن يوسع من دائرة فهم المتلقي لما يريد إبلاغه له، خاصة في مجال النصح والإرشاد لتجنب ما يمكن أن يوقع في ما لا يحمد عقباه ويجر بالأمة إلى فتن لا متناهية ولا نعتقد أن صاحب رواية "إرهابيس" قد فاته هذا الأمر لذا وعلى الرغم من تعدد التأويلات والرؤى من قبل القرّاء – يمكن استخلاص ملاحظة مهمة جدا- وهي أن المبدع يحاول في كل مقطع أن يُعرف المتلقي بشخصية كل بطل من شخصيات روايته.

---

[1] – د/فالح شبيب العجمي، مقال العلاقة بين القارئ وفهم كتاب النص، المرجع السابق، ص366.

[2] – المرجع نفسه، ص366.

كيف تتم عملية الفهم؟:

تقول الدراسات النفسية أن المتلقي عند فهم الجمل ينطلق في – العادة- من اسم (يظهر أولا في الجملة)، "يضعه" فرضيا بوصفه مسندا إليه، وبوصفه حركات أساسية، وعن طريق عمليات البحث عن وحدات فعلية (قابلة للإثبات بواسطة حركات العينين عند القراءة) تستنتج عندئذ الأداة المنطقية للقول، ويصل عبر وضع هذه الوحدات في علاقاتها المتداخلة بواسطة معلومات أخرى إلى فهم مضمون الإنجاز النظري والقضوي في قول الجملة[1]، بسبب سعة المخزون المحدودة في الذاكرة ذات الوقت القصير (حسب الأبحاث النفسية يسمح للإنسان باستعمال خمسين قضية أولية تقريبا حدا أعلى لسعة التخزين) يجب أن يُسمح بالضرورة جزء من وحدات المعنى المنشطة من قبل مرة أخرى، لكي يمكن خلق مكان لاستقبال معلومات سياقية أو نصية أخرى، وما يتعرض "للمسح" هو تلك الوحدات التي تكون غير ذات أهمية – من وجهة نظر المتلقي- لفهم معنى النص أو لا يكون لها إلا أهمية ثانوية[2].

لذلك لا تدمج المعلومة المعدة للمعالجة من جديد في "معنى النص"/"معنى النص الجزء" المعالج بالكامل من قبل، بل فقط في القاعدة الموجودة إلى ذلك الوقت في المخزون من المعلومات المعالجة.

ومعالجة المعلومة تحدث من أجل ذلك لوقت قصير فقط (خلال دورة) في ذاكرة العمل، بهذا المعنى يحدث فهم النص أساسا بشكل انتقائي، ويعتمد بشكل خاص على أهمية المعلومات للمتلقي، ويتم فهم النص لدى "مينسكي" بواسطة قفل الإطارات وجمع البرهان من جمل النص والملء بالتفصيل وافتراض ثبات نقص التفصيلات، ووضع تخمينات واستنتاج واختيار ومراجعة الافتراضات[3].

ولقد أثبتت الامتحانات النفسية أن المتلقين يقومون – غالبا- بتصحيح معنى النص في نص كانوا قد استقبلوه قبل وقت طويل بأثر رجعي للوصول إلى التوافق المذكور هنا مع المخزون سلفا، في الوقت ذاته لا تتم فقط عملية تنظيم المعلومات الواردة، بل أيضا تختصر إلى أبنية (***Micro-structures***) في مستويات عدة وهي سلسلة من العمليات، لكنها تبدو كأنها عملية واحدة من خلال الفهم الأخير للنص، وهذا الاختصار يصبح ممكنا بفضل قالب المعرفة التقليدي[4].

ويبدو واضحا أن عملية فهم الاتصال معقدة جدا، فبعض مكونات القضايا الفرعية تتعامل مع إدراك معنى الكلمة، وأخرى تتولى فك شفرة القواعد النحوية لتركيبها، ويشكل أيضا التعرف على معاني الكلمات المفردة من ذوات المشترك اللفظي صعوبة أخرى، وعلى هذا الأساس يجب على علم النفس أن يأخذ هذه الصعوبات في فهم النص بعين الاعتبار، لأنه عندما يفشل سامع أو قارئ في التعرف على الطبيعة الدلالية المتعددة للكلمات، والدور الحاسم للسياق، فإن ذلك بإمكانه أن يوصل إلى صعوبات في الفهم[5].

---

(1) – د/فالح شبيب العجمي، مقال العلاقة بين القارئ وفهم كتاب النص، المرجع السابق، ص367.
(2) – المرجع نفسه، ص367.
(3) – نفسه، ص367.
(4) – نفسه، ص367.
(5) – نفسه، ص368.

يضاف إلى ذلك أن قضية ترتيب الكلمات هي الأخرى من قضايا التدرج في صعوبة النص، وتبدأ في سلم الصعوبة من الجمل التي تتوالى فيها الأسماء وصفاتها، والأخبار وصفاتها، وهي التي لا تشكل أي صعوبات حقيقية في الفهم، إذ تتضح سهولتها من خلال كون الأبنية التركيبية السطحية فيها لا تختلف عن أبنيتها التركيبية العميقة، وكون توالي الأحداث فيها يتلاءم مع ترتيب الكلمات[1].

وكما تتطور اللغة باستمرار باتجاه التسهيل وتفادي الأساليب المعقدة، مما أصبح يعرف بقانون السهولة والاقتصاد في المجهود ضمن دراسات التطور اللغوي (هو بالأحرى لدى مستعملي اللغة وليس اللغة ذاتها)، فإن المتلقي الذي يعد مشاركا في صنع النص، يسعى هو الآخر إلى توخي الطريق الأسهل في الفهم، فهو في النص المكتوب يجاول أن يسد الخانات الفارغة من عوامل السياق بأقرب العناصر المناسبة لتلك الفراغات، وهذا ما يسميه "براون وبول" مبدأ الفهم المحلي، حيث يتبنى القارئ في غياب عناصر الموقف الذي يتصوره كاتب النص فهما محليا لمؤشرات الزمان والمكان والأطراف المشاركة[2].

فعوامل السياق المكانية والزمانية على وجه الخصوص تبقى ثابتة مع تقدم النص، ما لم ترد إشارة في النص نفسه بتغيير أي منها وإذا ورد على سبيل المثال حديث عن الباب، فالمعنى الأقرب هو الباب الذي يشير إلى المكان ما لم يشر إلى غيره، وإذا ورد لفظ نسبي لتحديد الزمن مثل كلمة "مبكرا" فإنه سيكون قياسا إلى الزمن المذكور قبل ذلك في بداية خط رجعي في النص، ما لم يربط اللفظ بمتغيرات أخرى في النص ذاته.

أما في حالة وجود الاضطراب الدلالي أو المنطقي بعد ملء الخانات الذرعية الفارغة بأقرب العناصر، فيلجأ القارئ حينها إلى البحث عن مكونات ذرعية غائية قد يهتدي إليها إذا ساعدته ثقافته والظروف العملية المحيطة بوجود النص، وقد يصعب عليه الفهم، ويصنف النص في درجة من الغموض أو الصعوبة أو الركاكة أو الرمزية أو الاقتضاب[3].

وانطلاقا من تصنيف المتلقي النص؛ فإنه إذا تعددت الاحتمالات وغابت المؤشرات النصية المرجحة لأي احتمال، أمكنه الحكم على هذا النوع من النصوص بصفة الغموض، ويكون النص صعبا إذا تعذر الوصول إلى مرجعية الرمز اللغوي إما لبعده عن النص أو لعدم ذكره.

أما عندما يفقد النص التسلسل المنطقي بسبب عدم التدرج في القضايا أو العبث بآلية اللغة يكون النص ركيكا، وينتج النص الرمزي في حالة وجود القطاعات في الإسناد باستخدام الإيحاء الإشاري، وعندما تغيب تفصيلات سياقية ضرورية من بنية النص، يصبح النص مقتضبا.

وجدير بالذكر، أنه ليس بالضرورة أن تكون تلك الصفات سلبية في النصوص، فقد يكون بعضها ضروريا ومحمودا في بعض أنواع النصوص، كالاقتضاب في البرقيات، حيث يعرف منتج النص جوانب

---

(1) - Suria A. EDJV, language and congnition, Wertsch, Wachington, DC, (USA), Winston et sons, 1982, P:177.

(2) - ج.ب.براون، ج.بول، تحليل الخطاب، المرجع السابق، ص72.

(3) - د/فالح شبيب العجمي، مقال العلاقة بين القارئ وفهم كتاب النص، المرجع السابق، ص368.

النقص في معلومات المتلقي المقصود بالنص بشكل جيد، فيستغني بالتالي عن تفصيلات ضرورية لمتلق آخر.

محور العلاقة بين الإنتاج والفهم:

- كيف يجب أن تكون العلاقة بين الإنتاج والفهم؟
- هل تكون العلاقة سليمة إذا كان فهم الكلمات موافقا لما أراد من معان؟

تعددت الدراسات التي تعالج العلاقة بين المنتج والمتلقي، كما اختلفت اتجاهاتها، إذ منها ما يعطي المنتج القوة للهيمنة على محور العلاقة بينه وبين المتلقي، ومنها ما يوزع قوة الهيمنة على المحور بين الطرفين، وتتبنى بعض الدراسات رجحان كفة المتلقي في تلك العلاقة. وعلى الجملة، فإن قوة المنتج تتناسب عكسيا مع قوة المتلقي[1].

تجنب سوء الفهم بين طرف التفاعل في النص المكتوب:

يتطلب تجنب سوء الفهم بين المنتج والمتلقي بعض العوامل الإيجابية وأخرى سلبية مقارنة بالنص المسموع (الخطاب).

1. **العوامل التي تساعد على تقارب فهم الطرفين (المنتج المتلقي):**

أ. تحكم القارئ في النص المكتوب.

ب. سعة الوقت لدى القارئ خلافا للسامع الذي يفقد النص عند موت الصوت.

2. **العوامل التي تعيق الفهم في النص المكتوب:**

أ. غياب عناصر أساسية في الفهم، مثل النبر والحركات المصاحبة والتعبيرات.

ب. عدم القدرة على الاستفسار من لمنتج النص، كما هو الحال في النص المنطوق.

جهود الإفهام لدى كاتب النص:

تتطلب جهود الإفهام أولا من الكاتب خلق الاستعداد لدى القارئ من أجل التعاون فيما بينهما لإنجاح مهمة التواصل، ومساعدة القارئ كذلك على أن يستنتج في كل جزء من النص ما يمكن أن يأتي في الجزء اللاحق، وبواسطة مجموعة إضافية من أحداث النص، يستطيع الكاتب أن يضمن فهما صحيحا وسريعا لدى القارئ، وذلك عن طريق المدخل الاستعراضي لموضوع النص، وشرحه، وتحديده بدقة وإكماله وإبراز المهم فيه بواسطة وسائل مختلفة[2].

ولأن بناء النصوص لا يتحدد بقواعد بناء ثابتة، فإنه لا يمكن التنبؤ بقواعد عامة تحكم أبنيتها، ولا تتيسر معرفة الإطار الذي يختار لها إلا في مجال حل مهمة اتصالية معينة، وتشترط بعض النصوص المكتوبة بعض المعرفة لدى قرّائها، الأمر الذي يجعل الكاتب مضطرا للتقليل من سوء الفهم في بعض النصوص، ولذلك فهو يلجأ إلى:

---

[1] - محمد فتاح، دينامية النص (تنظير وإنجاز)، المرجع السابق، ص46.

[2] - د/فالح شبيب العجمي، مقال العلاقة بين القارئ وفهم كتاب النص، المرجع السابق، ص370.

1. التعويض عن فقدان الإشارة الحسية إلى الأشياء التي تتميز بها النصوص المنطوقة عن طريق أوصاف دقيقة ومحددة للأوضاع (وصف الأشخاص والأمكنة والأزمنة).
2. التوضيح الكافي للبيئة التي نشأ فيها النص المكتوب (لأنها غير معلومة بالضرورة للقارئ) وكذلك بعض عوامل السياق المهمة للفهم، فعبارة مثل: " خير الكلام ما قلّ ودلّ" يفترض ألا تطبق على النصوص المكتوبة المراد بها الإفهام.
3. الاهتمام بالتكوين الهرمي للأفكار في النص، وإيضاح العلاقات بين العناصر الأساسية فيها، ثم الأخرى الفرعية. وهنا يوضح "عز الدين ميهوبي" النقطة المشتركة التي جمعت بين مجرمي دمار البشرية من زمن هتلر إلى يومنا هذا زمن بن لادن.
4. تنظيم المعلومات وكذلك الاهتمام بطرق إيصالها، مثل مبدأ الانتقال من المعروف إلى غير المعروف، ومن البسيط إلى الصعب مع مراعاة المتطلبات الخاصة، بالمتلقي، كذلك ومراعاة اهتماماته وتوقعاته الممكنة.
5. التقويم الإدراكي للشريك، إذ يجب أن يكون النص ليس فقط ذا دلالة للمتلقي، وإنما يجب أن يتناسب وقدرة تقبله العقلية، وبالمقابل ينبغي ألا يكون القارئ قد أجهد نفسه بواسطة النص، ولا يكون قد خوطب بما لا يرقى إلى مستواه، ولهذا السبب يجب على كاتب النص عند تأليفه للنص أن يضع نصب عينيه كفاءات الاستنتاج المتوقعة من قبل القارئ. وهذا الذي يقر به المبدع "عز الدين ميهوبي".
6. تقسيم النص إلى عناوين بارزة وأخرى فرعية أو إلى فقرات.
7. التأكيد على المعلومات الرئيسة بشكل خاص (مثلا: بواسطة إشارات تفسيرية،...)، تكرار تلك اللازمة (لم تر شيئا يا صديقي).
8. العناية بالصياغة ومشاكلها، مثل قضية "مطابقة الموضوع"، ومشكلة "تكوين التفاهم" (الوضوح والشفافية) والعبء الاتصالي للمتلقي (القدرة على الاستقبال...) وكذلك الطول والقصر حسب وظيفة النص المكتوب، فالبرقيات والإشارات الإرشادية مثلا: تتميز بالقصر، بينما توجد نصوص أخرى لا يستغنى فيها عن السعة في العرض[1].

جهود تجنب سوء الفهم لدى القارئ:

يختلف القرّاء في سلوكهم إزاء النص المكتوب تبعا لاختلاف أهدافهم من القراءة، وبناء على نشاط عملية التفعيل والإلغاء التي يجريها المتلقي عند تعامله مع النص، وتكون نتيجتها هي نتيجة تفاعله مع ذلك النص ومحصلة فهمه له.

[1] - د/فالح شبيب العجمي، مقال العلاقة بين القارئ وفهم كتاب النص، المرجع السابق، ص371.

كيف يتفاعل القارئ مع النص؟

في الوضع الطبيعي يستقر فهم القارئ عند معنى واحد متجانس تلغى عنه المعاني المختلفة والمتناقضة معه، وتوجد علاقة طردية بين كمية التفعيل والخبرات المتوافرة لدى المتلقي، فكلما زادت الخبرات زادت كمية التفعيل، بينما تقل تلك الكمية لدى قليلي الخبرات تبعا لقلة الدوال.

ويكون المتلقي الأقل مراسا – عادة- أعجز في رفض المعنى غير الملائم للكلمات ذات المعاني المتعددة وكذلك في رفض الصيغ غير الصحيحة. وكثيرا ما يتجاهل الصور الموضحة وبعض الكلمات، لكنه من جهة أخرى يكون قليل المران أكثر استفادة من السياق القابل للتنبؤ من الشخص الأكثر تدريبا، فبعض الكلمات مثلا قابلة للتنبؤ في سياق معين، لكنها أقل تنبؤا في سياق آخر[1].

وبالإضافة إلى أن القيمة التفاعلية للص تلعب دورا كبيرا في رفع مستوى الفهم لدى القارئ وتذكر دقائق النص مضمونا وشكلا وترفع درجة المعقولية في النص إلى حد تنتفي معه الحاجة الماسة إلى التفسير، إذ لا تحتاج النصوص عندئذ إلى أكثر من قراءة واحدة، وهو ما يمكن أن يسهم بدرجة كبيرة في نجاح الاستيعاب الإلكتروني للنصوص وقدرتها على الترجمة الآلية من لغة إلى أخرى إلا أن ذلك لا يمنع الاهتمام بوسائل أخرى لدى القارئ، ومن بين هذه الوسائل ما يلي:

- عدم توحيد التفسير الذاتي للنص مع النص نفسه، لأن ذلك يبعد كثيرا عن المراجعة المستمرة للتفسير المخزّن في حالة توفر شروط جديدة تساعد على المراجعة وربما الخروج بتفسير جديد.
- تحديد المهمة التي وضعها لنفسه، أو وضعها له غيره، والهدف من قراءة النص المكتوب، فقراءة الجريدة تختلف عن قراءة بحث علمي، وهما تختلفان عن قراءة النقد أو التحكيم...
- الاهتمام بأدوات النفي أو العبارات السلبية، وكذلك أدوات الحصر والتحديد التي قد يُوَلِد عدم الانتباه إليها قلبا للمعنى أو تعميما أو غير ذلك.
- رفع كفاءة التخصص في الموضوعات التي يقرأ للمرء فيها، إذ إن معرفة المصطلحات ضرورية لفهم أوضح وتفريق بين المعاني العامة والاصطلاحية للكلمات.
- تفادي الأحكام المسبقة قدر الإمكان كي لا تطول مراحل الإلغاء وتتعقد، فيحدث تشويش في محصلة الفهم[2].

وفي النهاية، نخلص إلى أن أهم الدراسات المشتركة بين العلوم المختلفة المتصلة بمفهوم النص/الخطاب هي تلك الدراسات النفسية اللغوية والاجتماعية اللغوية، التي كان لها الفضل في وضع الأسس التجريبية والنظرية لتحليل الخطاب، وتحديد طبيعة العمليات المعرفية المستخدمة في إنتاج النص وفهمه، وتخزينه وإعادة إنتاجه، بالإضافة إلى القواعد العرفية العامة، وكذا البلاغة الجديدة والشعرية والتداولية التي

---

(1) - د/فالج شبيب العجمي، مقال العلاقة بين القارئ وفهم كتاب النص، المرجع السابق، ص372.

(2) – المرجع نفسه، ص373.

تعد أحدث فرع من العلوم اللغوية التي تعنى بتحليل عمليات فهم الكلام والكتابة، ووصف وظائف الأقوال وخصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل.

التداولية وعنايتها بتحليل عمليات الكلام والكتابة:

مستوى التحليل:

يقول ميهوبي:" الأدب يوصف كأدب ولكن في عمقه تجد كل المعارف (الأسطورة، العبثية، التاريخ، السياسة،...) والمبدع البارع هو الذي يستطيع أن يقيم علاقة بين كل هذه المعارف، وهي الطبخة الأكثر تعقيدا؛ لأن الإشكال المطروح بالنسبة للمبدع هو كيف ينجح في توظيف معلومات تاريخية بأسلوب سردي روائي؟

وميهوبي كاتب يهتم في بالجانب الإستراتيجي والحرب الباردة، ويرى بأن ما يكتبه يمثل القيمة المضافة من تجربة المؤلف في الفكرة، وفي التجربة، وفي اللغة وفي توسيع قائمة القرّاء.

ويمثل مؤلفه الكتابة المعولمة التي تعني - من منظوره- الخروج من المحيط الجغرافي إلى العالم، أي أن هذا النوع من الكتابة يطرح قضايا العالم ليخرج المتلقي من دائرته الصغيرة (الوطن) إلى الدائرة الكبرى (العالم)، ومن خلال الرواية أو الكتابة سيعايش المتلقي كل الأحداث العالمية، ويستطيع ويتعرف على كل الأسماء البارزة إن للعظماء أو لمجرمي الحروب العالمية، وبالتالي ستتكون لدية فكرة أو معرفة كان يجهلها في العالم كانت تمثل له هاجسا، وكأن رواية "إرهابيس" جاءت لتبدد حيرة المتلقي، وتفسر له حقيقة الأوضاع الراهنة.

وعن اللون الأسود والأحمر على غلاف الرواية؛ يقول المبدع: الأسود يحيل إلى قتامة الوضع، أي إلى العشرية السوداء أو الحمراء، وهو كذلك رمز للظلام الدامس، إذ شيء مظلم صعب أن نكتشف طريقك فيه.

وعنوان الرواية "إرهابيس" تفسر كيانا سياسيا مبتكرا من قبل أشخاص مجانين يؤمنون بتغيير العالم بالدم وبالقوة (هتلر، بن لادن، ستالين، فرانكو، كارلوس، كابون، إيسكوبار، موسيليني، أميلدا ماركوس، أولريكي، بوكاسا، كيم جونغ يل، بيونشيه، صدام حسين، القذافي، تشاوسيسكو، بول بوت، بوب دينار، أوم ودافلا، شيكي غيفارا) هؤلاء هم كبار "إرهابيس" عالم الفساد والطغيان.

وفي بداية الرواية؛ يحاول ميهوبي أن يعرف المتلقي بجزيرة "إرهابيس" أو بالأحرى نشوء هذه الجزيرة التي هي جزيرة مجازا، أما الحقيقة فإنها تمثل نشوء كيان سياسي مختلف روحه "الإرهاب"، القوة، الدم،.

أما إضافة اللاحقة (إيس) فهي نسبة إلى قارة أتلانتيس التي غرفت تحت الماء – حسب ما ترويه الأساطير- وإرهابيس حلت محلها حيث أعطاها ميهوبي إحياء الجانب التاريخي الكلاسيكي، الأسطوري، إذ الإرهاب هو عمق تاريخي.

وإضافة "إستان" - من وجهة نظر ميهوبي- هي للدلع وما قام به تشي غيفارا من حرب تسمى بالمقاومة الثورية، بينما يمثل بن لادن الإرهاب باسم الدين؛ وعلى الرغم من اختلاف المصطلحات الحربية؛ فإنها كلها تتقاطع في استعمال القوة والدم من أجل التغيير.

أما لفظ "الإثم" الوارد على غلاف الرواية؛ فإنه يمثل الإجرام، وأما لفظ "الغفران": فإنه الاعتقاد الذي يعتقده كبار الفساد والطغيان، حيث يرون أنهم على حق، وأن الانتحار شهادة.

وإذا كان الراوي هو الذي يوجه العمل السردي فإن رواية "إرهابيس" هي نتاج بحوث قام بها ميهوبي حول علاقة الإرهاب بالإعلام، فجاءت روايته في عمل إبداعي متخيل، من خلاله يجيب على ألسنة شخوص الرواية عن معظم الأسئلة التي أرقته وربما تؤرق كل البشرية، وبالتالي فقد مثلت الرواية كيانا سياسيا وتاريخيا ومكانيا وزمكانيا.

ويكشف عمل ميهوبي الإبداعي مدى الشعور بالحيرة في هذا الواقع المهزوم، وعن الإحساس بالغربة الوجودية في هذا العالم الغريب. لذلك قدم كلمة "الإثم" على "الغفران" ليوجه انتباه المتلقي الذي ينام في غفلة لا يفرق بين الآثمين وبين من يستحقون الغفران خاصة المتلقي الجزائري؛ إذ "إرهابيس" رواية تعبر كذلك عن الإرهاب الذي طال الجزائر، ولولا الغفران ومشروع الرئيس عبد العزيز بوتفليقة – أطال الله عمره- المتمثل في المصالحة والوئام لما خمدت نيران الإرهاب في الجزائر.

إن رواية ميهوبي "إرهابيس" من الأدب الصدى أي الأدب بما هو كتابة، إذ تصور الرواية وتنقل واقعا اجتماعيا وسياسيا ونفسيا موجودا فعلا قبل الكتابة، وهذا التصور هو ما كان يشكل أفق انتظار القارئ العربي عموما والجزائري على وجه الخصوص، إذ الرواية بالنسبة إليه انطلاقا من هذا الأفق، هي القادرة على تصوير واقع حافل بالتوتر والصراع، إذ هي الجنس الأكثر قدرة على التقاط التحولات والتعبير عن التغيير. والقص يعد معادلا للحياة، لأنه يعيد إنتاجها على الورق، والسارد كلي المعرفة هو المؤلف الذي توحده بالمتلقي قيم اجتماعية واحدة ورؤية جمعية متماسكة تساهم في مد جسور التواصل والتوصيل بينهما (الكاتب والقارئ). وذلك أن الواحدية هي المنطلق الأساس الذي تنهض عليه عملية التماسك الداخلي للنص الروائي، وهي المصدر الذي تتولد عنه تأويلات النص المتعددة حسب معارف المتلقي.

ويبقى الفهم والتأويل مطلقا لا تقيده قاعدة معينة، وذلك أن المتلقين مختلفون حسب إمكاناتهم المعرفية وتمكنهم من اللغة وفسحة التأويل " إننا لا نستطيع أن نبقى داخل النص... أعتقد أن ثمة بين خارج النص وداخله توزيعا آخر للمجال أو الحيز، وأعتقد أنه سواء في القراءة الباطنية أم في القراءة التفسيرية للنص عبر مسيرة الكاتب، أو تاريخ الحقبة، يظل شيء ما ناقصا دائما"[1].

ومن وجهة نظر "جوليا كريستيفا" لم يعد السياق يُشكل معطى جاهزا نرد إلى النص، إنه نتاج التفاعل بين استراتيجية النص واستراتيجية القارئ، وأي مقاربة دينامية تتوخى فهم النص في تعدديته المعقدة

---

[1]- Emille Benveniste, Problème de linguistique générale, 2ème ed. Gallimard, 1974, P:82.

بالتركيز على بنياته الداخلية، فإنها لا تكتشف فعالية البنيات إلا إذا نظرت إلى النص من وجهة نظر تفاعلية تظهر العلاقات المعقدة بين النص وسياقه السوسيوثقافي- تاريخي[1].

فالنص ممارسة إنتاجية، إنه تحوير للنصوص وتناص في فضاء نصي ما تتقاطع وتتصادم فيه ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى[2].

وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار النص فضاء ديناميا لأنساق معينة لا ينبغي أن يهمل الاستراتيجية الفعالة للقارئ في ترهين هذه التعددية، وإذا كانت الدلالة لا وجود لها خارج شرط تأويلها، فينبغي على القراءة أن توسع فعلها كإنتاج وممارسة، وليس كاستهلاك. يقول "بارث":" بقد أصبحنا نعلم أن الكتابة لا يمكن أن تتفتح على المستقبل إلا بقلب الأسطورة التي تدعمها: فميلاد القارئ رهين بموت المؤلف"[3]. إذ يقوم القارئ بعملية الربط بين الدلائل حيث يغدو مشاركا في الاستراتيجية النصية، لذلك تقتضي إنتاجية القراءة تفعيل تعددية النص عن طريق تفكيك مختلف الأنساق النصية.

كما هو معلوم فالإبداع الروائي من أكثر الأجناس الأدبية اتساقا بالحياة والوعي، وأكثرها إغراء بالمقايسة مع الواقع والمتخيل على السواء، والطابع الفرداني للإبداع يمثل تجليا للكلية الجماعية بوجه من الوجوه، ولا احد ينكر بأن الرواية هي جزء من مشروع فني ورؤيوي ممتد ومتواصل إذ يمثل تاريخها سياقا عاما تؤطره وقائع وأحداث عربية ودولية طاغية الحضور (حرب الخليج في إخراجاتها المتنوعة والمتكررة، انتكاس الخيارات الديمقراطية، الظاهرة الإسلامية...).

وتبعا لذلك يتحكم العنوان في توليد التدليل القرائي ويحفز أفق التلقي، فما الجدوى من الكتابة أمام مسوخ الواقع وفجائعيته؟ والجواب أن الكتابة في وضعها الملتبس إزاء ما يجري من أحداث هي أضعف الإيمان وأقواه في الآن ذاته عملا بحيث الرسول صلى الله عليه وسلم:" من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان". لذا فما علاقة العناوين بالكليات النصية؟

وفي مستوى التحليل تقوم رواية "إرهابيس" على متن حكائي مداره الفضائي مدينة متخيلة (من خيال المبدع) هي إرهابيس على وزن أتلنتيس، تلك الجزيرة التي غرقت في الزمن البعيد إذ فساد لم يشمل منطقة دون سواها بل عمّ حطبه كل أرجاء العالم، ومن هنا فالمبدع يرسم معالم الكارثة الإنسانية التي ارتكبها الحكام المجرمون بذريعة التغيير الذي لا يكون إلا بالدم.

وعلى هذا تمثل الرواية ملحمة عبثية غير قابلة للتصديق رغم أن كل ما بثه المبدع هو سرد تاريخ حقيقي لمجرمي البشرية ولكن فيما يمكن أن يسمى ما بعد القيامة. لذلك وجدناها تعتمد في تجلية الخراب وصفات المجرمين وأعمالهم الإجرامية على أسلوب الروبورتاج المكتوب والمباشر ناقلا بذلك المتلقي بصمة

---

[1]– Julia Kristiva, Semiotiké, P:52.

[2] – محمد بوعزة، استراتيجة التأويل (من النصية إلى التفكيكية)، منشورات دار الاختطاف، الجزائر، ط/1، 2011، ص:32-33.

[3] – رونالد بارث، درس السيميولوجيا، ص87.

الصحفي البارع في نقل الأحداث. ويمثل متن الرواية مشاكلة تخييلية لواقع ملموس بسبل تجعل التخييل المقبول أكثر إدراكا وقربا من الواقع غير المقبول.

ولقد شكّلت السخرية والتهكم والمبالغة أهم الآليات لتجلية أقصى درجات التردي الذي حاق بالمجتمع، فقد تمرد ميهوبي على الحكي التقليدي فأبدع ببديهة صائبة ولغة مشرقة فنا روائيا يُسرد أحداثا سياسية وتاريخية حقيقية، فأبحر في اللغة مفرجا ينابيعها بأسلوبه الخلاق وتداخل الأجناس واستلهام المعرفة بكل أشكالها وتشظيات الزمن وبتبعثر الأشياء وتمازج الكائنات وتوحد الأسطورة بالتاريخ والفلسفة والشعر والحياة، وتفاعل الإيماء بالإيحاء وبالإيقاع وجماليات الصورة.

والرواية عند ميهوبي كما يفهمها المتلقي هي صدا منه وإليه، إذ بها تجاوز واكتشف سر جرائم الطغاة، لذلك تلاعب باللغة لإنها منزل الوجود كما يقول "هيدجر":" منها يتم الإبداع وفيها وإليها".

وتنتمي رواية "إرهابيس" إلى الكتابة الروائية الجديدة التي تبني حداثتها عبر أصالة فنها واستكشاف الهوية واختلاف الجنس الإبداعي، والرواية كما يشهد الغلاف تمسك بثقافة المبدع الذي يريد أن يُصور واقع العشرية السوداء التي عاشها الشعب الجزائري ولم تسلم منها حتى دول أخرى.

قائمة المصادر والمراجع

1. ج.ب.براون، ج.بول، تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي الزليطي، منير النريكي، مطبوعات جامعة الملك سعود، 1997.
2. رونالد بارث، درس السيميولوجيا.
3. صلاح الدين فضل، بلاغة الخطاب وعلم النفس، عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية شهرية، مصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 164، 1992.
4. عبد الرحمن عشير، إشكالات التواصل والحجاج رسالة دكتوراه، جامعة ---، فاس، المغرب، 2000، ص22.
5. فالج شبيب العجمي، مقال العلاقة بين القارئ وفهم كتاب النص، عالم الفكر، المجلس الوطني الثقافي والفنون والآداب، دولة الكويت، المجلد 28، العدد 01، سوليو/سبتمبر، 1999.
6. محمد بوعزة، استراتيجة التأويل (من النصية إلى التفكيكية)، منشورات دار الاختطاف، الجزائر، ط/1، 2011.
7. محمد فتاح، دينامية النص (تنظير وإنجاز)، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، المغرب، ط/2، 1990.
8. نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1987.

9. هانز جورج غادامير، فن الخطابة وتأويل النص ونقد الأيديولوجيا، تر: نخلة فريفر، مجلة العرب والفكر العالمي، بيروت، 1988.

1. Dictionnaire critique de la communication.

2. Dictionnaire Encyclopédique des sciences du langage, ed. Seuil, paris, 1972.

3. E. Matthier and T. Roeper, undestanding and producing speech, Great Britain fontana paperbacks, 1983.

4. Emille Benveniste, Problème de linguistique générale, 2ème ed. Gallimard, 1974.

5. G. Yule Brown, Discourse Analisis, Cambridge, 1983.

6. G.B. Madison, Understanding a phenomenological, pragmatic, analysis in philosophy, N° 19, Connecticut, green wood press, 1982.

7. Julia Kristiva, Semiotiké,.

8. Suria A. EDJV, language and congnition, Wertsch, Wachington, DC, (USA), Winston et sons, 1982.

9. T.A.van Dijk, opinions and attitudes in discourse comprehension, language and comprehension, ed J.F, NY, W Kintch, amstrerdam, North Holland publishing company, 1982.

10. T.G Bever, the cognitive basis for linguistic structure in "hayes", cognition and the development of language, NY, Willey, 1970.

11. Théorie de l'argumentation.